رؤية اللّه في: الدنيا.. والآخرة

٣٢ ـ قال اللّه تعالى في الحديث القدسي:

«يا مُوسَى، لَنْ تَرَانِي، إنَّهُ لَنْ يَرَانِي حَيٌّ إلا مَاتَ، وَلا يَابِسٌ إلا تَدهْدَه[١]، ولا رَطْب إلا تفرّق. إنما يَرانِي أَهْلُ الجنَّةِ الذِين لا تَمُوتُ أَعْيُنهم، ولا تَبلَى أجْسَادُهُم»[٢].

يقصُّ علينا رَبُّ العِزَّة سبحانه هذا الموقف مع موسى كليم اللّه في قرآنه فيقول:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

لا بُدَّ أنْ نعرف أن قضية رؤية اللّه في الدنيا محسومة، وأنه لا سبيلَ إلى ذلك والإنسان في جسده البشري، لأن هذا الجسد له قوانينُ في إدراكاته، ولكن يوم القيامة نكون خَلْقاً بقوانين تختلف.

---

(١) يتدهده: يتدحرج. والدهدهة: قذفك الحجارة من أعلى إلى أسفل، دحرجة. دهدهه: قلب بعضه على بعض. (لسان العرب ـ مادة: دهده).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٥)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٤٤) وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عباس قال: تلا رسول اللّه ﷺ هذه الآية: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ . . .﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وأورد السيوطي أثراً آخر في الدر المنثور (٣/ ٥٤٦) وعزاه لابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس: «إن موسى لما كلمه ربه أحب أن ينظر إليه، فسأله فقال: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ . . .﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قال: فحف حول الجبل بالملائكة، وحف حول الملائكة بنار، وحف حول النار بملائكة، وحف حولهم بنار، ثم تجلى ربك للجبل تجلى منه مثل الخنصر، فجعل الجبل دكاً وخر موسى صعقاً، فلم يزل صعقاً ما شاء اللّه، ثم إنه أفاق فقال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعني: أول المؤمنين من بني إسرائيل».

ففي الدنيا لا بُدَّ أن تخرج مُخلّفات الطعام من أجسادنا، وفي الآخرة لا مُخلّفات، وفي الدنيا يحكمنا الزمن، وفي الآخرة لا زمن، إذْ يظلُّ الإنسان شباباً دائماً. إذن: فهناك تغيير.

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة، ففي الدنيا بإعدادك وجسدك لا يمكن أن ترى اللَّه، وفي الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك اللَّه سبحانه وتعالى، وهذا قمة النعيم في الآخرة.

أنت الآن تعيش في آثار قدرة اللَّه، وفي الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى اللَّه تبارك وتعالى.

ولقد حسم اللَّه تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام بأن أراه العجز البشري؛ لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور اللَّه فجعله دكاً.

وكأن اللَّه يريد أن يُفهِم موسى أن اللَّه تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته تعالى رحمة منه، لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل، فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى؟

وإذا كان موسى قد صُعِق برؤية المتجلَّى عليه، فكيف لو رأى المتجلِّي؟

والمانع لرؤية اللَّه هو عدم قدرة الإنسان على الإحاطة البصرية باللَّه. فنحن نعلم أن كُلَّ تكوين له قدرة استقبال لما يناسبه من أشياء، وضربنا لذلك مثلاً من دُنْيانا العملية، وللَّه المثَلُ الأعلى دائماً، وهو مُنزَّه عن كل مثال.

نجد الإنسان مِنّا عندما يُدخِل الكهرباء إلى بيته لرغبته في الانتفاع بقانون النور والضوء لمدة أطول وبفوائد الكهرباء المتعددة، ولكنه عندما يريد أنْ ينامَ فهو يطلب الانتفاع بقانون الظُّلْمة، فيطفئ المصابيح، ويضع مصباحاً صغيراً لا يتحمل أن يأخذ الطاقة مباشرة من الكهرباء من مصدرها القوي.

لذلك يأتي الإنسان بمُحوِّل للطاقة، فيستقبل المحوِّل طاقة الكهرباء العالية من مصدرها ويُخفِّضها بصورة تناسب المصباح الصغير، وهكذا نحتفظ بضوء ضعيف في الليل لنستفيد من قانون الظلمة لننام.

لذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولماذا لا تدركه الأبصار؟ لأن البصرَ آلةُ إدراك لها قانونها بأن ينعكس الشعاع من المرئيّ إلى الرائي ويحدده، فلو أن الأبصار تدركه لحددته، وأصبح مَنْ يراه قادراً عليه، ولصار مقدوراً لكم، لأنه دخل في إدراككم.

فلو أنك أدركت اللَّه لكان اللَّه مقدوراً لبصرك، والقادر لا ينقلب مقدوراً أبداً، إذن: فمن عظمته أنه لا يُدْرك: أنت قد ترى الشمس ولكن أتدَّعي أنك أدركتَها؟ لا، لأن الإدراك معناه الإحاطة.

فإذا أحاطت الأبصار باللَّه انقلب البصر قادراً، وصار اللَّه مقدوراً عليه، والقادر بذاته ـ كما قلنا ـ لا ينقلب مقدوراً لخَلْقه أبداً.

وقد وقف العلماء وقفة كبيرة واختلفوا:

هل الإنسان يرى ربه أو لا يراه، سواء في الدنيا أم في الآخرة؟

بعضهم قال: لا أحد يرى اللَّه بنصّ الآية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

ونقول: لكن هناك آيات في القرآن تقول:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

و«ناظرة» تضمن الرؤية وتُفيدها، وأيضاً فاللَّه يعاقب منْ كفر به، بأن يحتجب عنه، لأنه سبحانه القائل:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فالكافرون محجوبون[١] عن رؤية اللَّه عقاباً لهم، ولو اشتركنا معهم وحُجِبنا كما حُجبوا، فما مَيْزتنا كمؤمنين؟

وحين يَحتجُّ عالم منهم بأن رؤية اللَّه غير مُمكنة لأن ربنا سبحانه قال لموسى:

---

(١) الحجاب: الستر الحاجز. والمحجوب: الممنوع من الوصول. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٨٥): «قال الإمام الشافعي: في هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه ـ عز وجل ـ يومئذٍ. وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه اللَّه في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل ـ في الدار الآخرة رؤية بالأبصار في عرصات القيامة وفي روضات الجنات».

﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فلماذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ[١] مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

إذن: فالله يتجلى لبعض خَلْقه. أما أن يراه الخلق في الدنيا فلا، لأن تكويننا غير مُؤهَّل لأنْ يرى الحق سبحانه، بدليل أن الأصلب والأقوى منَّا وهو الجبل حينما تجلى ربه عليه اندكَّ.

فلما اندكَّ الجبل خَرَّ موسى صَعِقاً، فإذا كان موسى قد خرَّ صَعِقاً[٢] لرؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل فكيف لو رآه؟ إذن: فهو غير مُعَدّ له.

وموسى قد واعده ربه ليأتيه، فقال تعالى:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . .﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقيل: كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه، ولا بُدَّ أن يكون الإعداد بطُهْر وبتطهير وبتزكية النفس بصيام، فصام ثلاثين يوماً، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه، فأخذ سواكاً وتسوّك به ليذهب رائحة فمه.

فأوضح الحق سبحانه له: أما علمتَ يا موسى أن خلوف[٣] فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل عليّ بريح المسك فزد عشرة أيام، حتى تأتي كذلك[٤].

---

(١) خر يخر: سقط من علو إلى سفل بصوت. (القاموس القويم ١/ ١٩٠).

(٢) الصعق: أن يُغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه وربما مات منه، ثم استعمل في الموت كثيراً. (لسان العرب ـ مادة: صعق).

(٣) الخلوف: تغيُّر ريح الفم لتأخر الطعام. (لسان العرب ـ مادة: خلف).

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٥٣٠٩) عن ابن عباس رفعه: «لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين يوماً وقد صام ليلهن ونهارهن، فكره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه: لم أفطرت ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال: أي رب كرهت أن أكلمك إلا وفيّ طيب الريح. قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشرة أيام ثم إيتني، ففعل موسى الذي أمره ربه، فلما كلم الله موسى قال له ما قال». وأورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٣٥) وعزاه للديلمي.

وعندما جاء موسى للميقات كَلَّمه ربُّه، وتكليم اللَّه لموسى هو نقطة تميُّز لموسى، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وحينما خَصَّ اللَّه موسى بميزة أنْ تكلَّم إليه، حصل من موسى استشراق اصطفائي، وكأنه قال لنفسه: ما دام قد كلمني ربي فقد أقدر أن أراه، لأن استطابة الأُنس تمدُّ للنفس سُبُل الأمل في الامتداد في الأشياء، مِثْلما قال موسى من قبل رَدّاً على سؤال اللَّه:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ١٧].

كان الجواب يكفي أن يقول «عصا» لكنه قال:

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ (١) بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي . . . ﴾ [طه: ١٨].

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله: ماذا تفعل بها؟

وأراد بالكلام أن يُطيلَ الأُنس بربه، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة، رَدّاً على سؤال.

وللَّه المثَل الأعلى، نجد الإنسان مِنّا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويُطيل الكلام معه إيناساً له، وحين وجد موسى أن اللَّه يُكلّمه استشرفت نفسه أنْ يراه.

وموسى لم يَقُلْ: أَرِني ذاتك، بل قال: ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى اللَّه، لكن إنْ أراه اللَّه فهذا أمرٌ بمشيئة الحق، وقدَّم موسى الطلب مُعلَّقاً بمشيئة اللَّه وإرادته، لأنه يعلم أنه غير مُعَدٍّ لاستقبال رؤية اللَّه، لأن تكوينه لا يقْوى على ذلك.

وحتى في الوحي والكلام لم يُكلِّم ربُّنا الناس مباشرة، بل لا بُدَّ أن يصطفي من الملائكة رُسُلاً، ثم تكون مرحلة ثانية أنْ يصطفي من البشر رُسُلاً،

---

(١) هش الشجر يهشه: ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية. قال تعالى عن موسى: ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ [طه: ١٨]، أي: أسقط بعصاي أوراق الأشجار على غنمي لتأكلها. (القاموس القويم ٢/ ٣٠٣).

ويُبلّغ الرسلُ الناس كلامَ اللّه، لأن الصفات الكمالية العالية الخالقة لا يمكن أنْ يستوعِبها المخلوق.

وسبحانه هنا يُعلّل لموسى بعملية واقعية فأوضح:

لن تراني ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تُمكّنك من رؤيتي انظرْ إلى الجبل، والجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك، فإن استقَرَّ مكانه يمكنك أن تراني.

إن الجبل بحُكْم الواقع وبحُكْم العقل، وبحُكْم المنطق أقوى من الإنسان وأصلب منه وأشدّ، ولما تجلّى ربُّه للجبل اندكَّ، والدَّكُّ هو الضغط على شيء من أعلى لِيُسوّى بشيء أسفل منه.

فطبيعة موسى لا تَقْوى على تجلّي اللّه، بدليل أن الأقوى منه لم يَقْوَ.

والحق سبحانه لم يقُلْ: «أنا لا أُرَى» بل قال: «لن تراني».

فهناك فرق بين العبارتين. أنا أُرى، لكن أنت بتكوينك الحالي الدُّنْيوي لن تراني، إنما قد تُغيَّر حالتك إلى أنْ تراني، وإذا كان البشر يستطيعون أن يجعلوا لمن لم يَرَ شيئاً أن يرى، فيظل يُقوّي من بصره إلى أن يرى.

وبعد ذلك أراد اللّه أنْ يلفتنا لَفْتة تصاعدية، ويُبيِّن لنا أن موسى قد صُعِق لرؤية المتجلَّى عليه، فكيف لو رأى المتجلّي؟

يقول الحق سبحانه:

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا . . .﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ويُقال: خَرَّ الشيء إذا سقط من أعلى إلى أسفل. وصَعْقة موسى تُعبِّر عن الإغماءة الطويلة، فهي صعقة ليست مميتة، وأفاق سيدنا موسى من الصَّعْقة، وانتبه إلى أنه لم يكن من اللائق أن يطلب الرؤية المباشرة للّه.

لقد انصعق؛ لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وتوبة موسى هنا من أنه سأل اللّه ما ليس له به علم، ولأنه لم يقف عند

التجلّيات المخالفة لنواميس الكون، وأن ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل، لقد كلّمه اللّه، فلماذا يُصعّد المسألة ويطلب الرؤية؟

ولماذا لم يترك الأمور للفُيوضات التي يعطيها اللّه له، ويتنعّم بفيض جود لا ببذْل مجهود؟

ويُقرّر موسى ويقول: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أي: بأن ذاتَك ـ سبحانك ـ لا يقدر مخلوقٌ أنْ يراها ويُدركها، لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر، لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته، وقال:

﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ويُذكّر الحق سبحانه بني إسرائيل بما قالوه، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

فبعد أن تاب اللّه على قوم موسى بعد عبادتهم العجل عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديّتهم، فَهُمْ كانوا يريدون إلهاً مادياً، إلهاً يرونه، ولكن الإلٰه من عظمته أنه غَيْب لا تُدركه الأبصار.

فكوْنُ اللّه سبحانه وتعالى فوق إدراك البشر، هذا من عظمته جَلَّ جلالُه، ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادي المحسّ، لا تتسع عقولهم ولا قلوبهم إلى أن اللّه سبحانه وتعالى فوق المادة وفوق الأبصار.

فهم طلبوا الرؤية مَجْهورة واضحة يُدرِكُونها بحواسّهم، وهذا دليل على أنهم مُتمسّكون بالمادية التي هي قِوَام حياتهم.

نقول لهؤلاء: إن سؤالكم يتّسِمُ بالغباء، فهم لم يلتفتوا إلى أن بعضاً من كمال وجلال اللّه غَيْب، لأنه لو كان مشهوداً مُحسّاً لَحُدّد وحُيّز، وما دام قد حُدّد وحُيّز في تصوُّرهم، فذلك يعني أنه سبحانه قد يوجد في مكان، ولا يوجد في مكان آخر.

والحق سبحانه مُنزّه عن مِثْل ذلك؛ لأنه موجود في كُلّ الوجود، ولا نراه بالعين، لكن نرى آثار أعمال وجميل صُنْعه في كُلّ الكون.

إذن: فكَوْنُ اللّه غَيْباً هو من تمام الجلال والكمال فيه، لكن اليهود قد

صَوَّروا الأشياء كُلَّها على أنها حِسِّية، حتى أمور اقتيات حياتهم وهي الطعام، لقد أرادها اللَّه لهم غَيْباً حتى يُريحهم في التيه، فأرسل عليهم المنَّ والسَّلْوى[١] كرزق من الغيب الذي يأتي إليهم، لم يستنبتوه، ولم يستوردوه، ولم يعرفوا كُنْهه، ولم يجتهدوا في استخراجه. إنه رِزْق من الغيب[٢]، ومع ذلك تمرَّدوا على هذا الرزق القادم لهم من الغيب، وقالوا كما أخبر اللَّه عنهم:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا[٣] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو[٤] بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

إنهم يريدون أن يكون طعامهم كما أَلِفُوا، وأنْ يَرَوْا هذا الطعام كأمر ماديّ من أمور الحياة، لذلك تشكَّكُوا في رِزْق الغَيْب، وهو المنّ والسَّلْوى وقالوا: «**مَنْ يُدرِينا أنَّ المنَّ قد لا يأتي، وأنَّ السَّلْوى قد لا تنزل علينا**».

فلم تكُنْ لهم ثِقَة في رزق وُهب لهم من الغيب، لأنهم تناولوا كل أمورهم بمادية صِرْفة، وما دامت كل أمورهم مادية فهم في حاجة إلى هِزّة عنيفة تهزُّ أوصال ماديتهم هذه، لِتُخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب.

فرغْم أنهم رَأَوا المعجزات، وشَقَّ اللَّه البحر لَهُم، وعبروا البحر وهم

---

(١) المن: ندى يشبه العسل كان اللَّه ينزله على الأشجار غذاء طيباً لبني إسرائيل. والسلوى: السمانى، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلئ وهو من الطيور المهاجرة من أوروبا في الشتاء إلى البلاد الدافئة لمصر والسودان ويعود ما سلم منه في أوائل الصيف إلى موطنه في أوروبا، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده. (القاموس القويم ١/ ٢٤٠، ٢/ ٣٢٦).

(٢) قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(٣) البقل: نبات عشبيّ يؤكل أو تؤكل بذوره، أو كل ما اخضرت به الأرض. والفوم: الثوم. وقيل فيه أقوال أخرى: الحنطة، الحمص، (القاموس القويم ٢/ ٩٢).

(٤) باؤوا: رجعوا بإثم استحقوا به النار. (لسان العرب ـ مادة: بوأ).

يشاهدون المعجزة فلم تكُنْ خافية عنهم، بل كانت ظاهرة لهم واضحة، دالّة دلالة دامغة على وجود اللّه سبحانه وتعالى وعلى عظيم قدراته.

ورغم هذا فإن اليهود قالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى اللّه جَهْرة، أي لم تكْفِهم هذه المعجزات، وكأنما كانوا بماديتهم يريدون أنْ يروا في حياتهم الدنيوية مَنْ لا تدركه الأبصار.

أما في الآخرة فسيكون الإنسان قد تَمَّ إعداده إعداداً آخر ليرى اللّه، نحن الآن في هذه الدنيا بالطريقة التي أعدَّنَا بها اللّه لِنحيا في هذا العالم لا نستطيع أنْ نرى اللّه.

ومسألة إعداد شيء ليمارس مهمةً ليس مُؤهّلاً ولا مُهيَّأ لها الآن، أمر موجود في دُنْيانا، فنحن نعرف أن إنساناً أعمى يَتم إجراء جراحة له، أو يَتم صناعة نظارة طبية له فيرى، ومَنْ لا يسمع أو ثقيل السمع نصنع له سماعة فيسمع بها.

فإذا كان البشر قد استطاعوا أنْ يعدُّوا بمقدوراتهم في الكون أشياءَ لِتُؤهّلهم إلى استعادة حاسَّة ما، فما بالُنا بالخالق الأكرم الإله المرَبّي، ألَا يستطيع أنْ يُعيد خَلْقنا في الآخرة بطريقة تتيح لنا أنْ نرى ذاته ووجهه؟

إنه القادر على كُلّ شيء.

إن آيات القرآن صريحةٌ في أن رُؤية الحق سبحانه وتعالى من نِعَم اللّه على المؤمنين، وهي زيادةٌ في الحُسْنى عليهم.

قال تعالى:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ(١) وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦].

فالزيادة عطاء زائد في الحسنات، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة، ويصل إلى سبعمائة ضعف، أما السيئة فبواحدة، وهذا الكادر لا يُحدِّد فضل اللّه، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

فمراتب الجزاء تتعدد: فهناك العشرة الأمثال، والسبعمائة ضعف، والحُسْنى، والزيادة عن الحُسْنى.

---

(١) القترة: غبرة يعلوها سواد كالدخان. (لسان العرب ـ مادة: قتر).

وقد قال رسول اللَّه ﷺ في ذلك:

«**إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ قال: يقول اللَّه تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟**

فيقولون: ألم تُبَيِّض وُجُوهنا؟ ألم تُدخِلْنا الجنة، وتُنجِّنَا من النار؟

قال: فيكشف الحجاب فَما أُعْطُوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى رَبِّهم عز وجل»[(١)].

إنه نعيم على قَدْر إمكانات اللَّه سبحانه، ولا مُقارنَة بين إمكانات اللَّه وإمكانات خَلْقه، وفوق ذلك فهو نعيمٌ دائم لا يتركك فيزول عنك، ولا تتركه لأنك في الجنة خالدٌ لا تموت.

يقول تعالى:

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١].

فَمَنْ عبدَ اللَّه ليدخلَ الجنةَ أعطاها له، ومَنْ عبده سبحانه لأنه يستحق أنْ يُعبد فسوف يرتقي في الجنة ليرَى وجه اللَّه في كُلِّ وقت، وأما الآخرون الذين أطاعوا رجاءَ ثواب الجنة فسيرَوْنَه لمحاتٍ، ولذلك يكون الجزاءُ في الآخرة على قَدْر العُمْق الإيمانيّ للعبد.

وجنَّةُ الآخرة ليس فيها مُنغِّصَات الدنيا، بل هي صفاء واستمتاع، يعطي فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده مَا تشتهيه نفسه ويُبعد عنه جميع المنغِّصات، وهو نعيمٌ مُقيمٌ دائم لا ينتهي.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨١)، والإمام أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٢)، والترمذي في سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومي، وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوي في هذا الكتاب (١/ ٣٦٧ ـ ٣٨٤).

سهام إبليس

٣٣ ـ قال رب العزة في الحديث القدسي:

«النَّظْرةُ سَهْمٌ مَسْمومٌ مِنْ سِهَامِ إبْليسَ، مَنْ تركَها مِنْ مَخَافَتي أَبْدلْتُه إيمَاناً يَجِد حَلاوَتَهُ فِي قَلْبِه»[١].

لقد رَأفَ الحقُّ سبحانه بالرجل والمرأة أنْ أمرهما بغضِّ البصر، لأن الإنسان لن يستطيعَ مُطْلقاً أنْ يفصِلَ بين الإدراك والوُجْدان والنُّزوع، فكُلٌّ من الإدراك والوُجْدان يصنعان تفاعلاً في التركيب الكيمائي لكُلٍّ من الرجل والمرأة.

فإمَّا أنْ يعفَّ الإنسانُ نفسَه ويكبت أحاسيسه، وإمَّا ألَّا يعف فَيَلُغ[٢] في أعراض الناس؛ لذلك خاطب الحقُّ سبحانه رسولَه لِيُوجّه الرجال، فقال:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وكذلك النساء، فقال:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

فالآيتان تأمران الرجل والمرأة بغضِّ الأبصار وحِفْظ الفروج.

---

(١) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٧) وعزاه لعبد اللّه بن مسعود. وكذا العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٤٥٥)، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٦٣) عزوه كلهم إلى الطبراني وفيه عبد الرحمٰن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف. وقد أورده الحاكم في مستدركه (٤/ ٣١٤) من حديث حذيفة غير مروي عن رب العزة، قال الذهبي فيه: «واه وضعيف».

(٢) الولغ: شرب السباع بألسنتها، وولغ الكلب في الإناء: شرب فيه بأطراف لسانه. (لسان العرب ـ مادة: ولغ)، والمقصود به الخوض في أعراض الناس.

والإنسان له إدراكات متعددة، وكُلُّ جهاز إدراك له مَنَاط، فالأذن تسمع الأصوات، والأنفُ يشمُّ الرائحة، واللسان يتذوَّق المطعومات والمشروبات، ويتكلم بما يُراد، والعين ترى المرئيات.

وأفتَنُ شيء يصيب الإنسان من ناحية الجنس يأتي عن طريق العين، فالعين تُبصِر ما حولها، فهناك مُبْصِر (بكسر الصاد) وهو العين، وهناك مُبْصَر (بفتح الصاد) وهو مصدر الفتنة التي ستراها العين.

فلا بُدَّ أن يضع الحقُّ مناعة في كِلَا الطرفين، فأمرنا بغضِّ البصر، وبعد ذلك ستأتي الآيات التي تأمر المبْصَر (بفتح الصاد) بعدم إبداء زينته.

فبالنسبة للعين أمرنا بغضِّ البصر وأمر المؤمنات بالحِشْمة وعدم إبداء الزينة، وبذلك يمنع المسألة من الناحيتين، فحين تغضُّ بصرك عن محارم اللَّه لا يَهُمك إنْ كانَ هناك زينةٌ أم لا.

- فإنْ غَضَّ الرجلُ بصره ولم يكُنْ للمرأة زينة، فالمسألة سليمة تماماً.
- وإن غضَّ بصره وكانت المرأة مُبْدِيةً زينتها، فالمسألة سليمة أيضاً، لأنه لن يرى منها شيئاً يفتنه طالما غَضَّ بصره.
- وإن نظر إليها وهي غير مُبْدية لزينتها فلن يحدثَ شيء.
- ولكن الخطورة في الحالة الرابعة، وهي أنْ ينظرَ الرجل إلى المرأة وهي مُبدية لزينتها، فهنا مَكْمَن الخطر.

فالمؤمن يغضُّ بصره، والمؤمنة لا تُبدي زينتها، وتغضُّ بصرها أيضاً، حتى لا تُفتنَ برجل وَسِيم قد يكون أحسنَ من زوجها.

كُلُّ هذه المسائل مَنْع للشيء البشع الذي قال فيه الحق سبحانه:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

والحق سبحانه وتعالى ساعةَ يتكلَّم عن أوامره ونواهيه، فنجده مرة يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومرة أخرى يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

وهناك فارق بين الاثنين، فقوله تعالى: (لا تعتدوها) يعني: هذا حَدُّكَ فلا تتعدَّه، فأنت وصلتَ إلى الحدِّ ولكن لا تتعدّه.

ولكن حين يقول سبحانه: (فلا تقربوها) فأنت لم تصل إلى الحدِّ ولكنك بعيدٌ عنه، والملاحظ أن الحق سبحانه بعد كل الأوامر يقول: (لا تعتدوها)، وعند النواهي يقول: (لا تقربوها).

فالأمر المنهيّ عنه لا يتركك حتى تصِلَ إليه، ولكن يأمرك بالابتعاد عنه حتَّى لا يُغريك الشيطانُ بالوقوع فيه.

إذنْ: هناك فَرْق بين الفعل وبين أنْ تقربَ الفعل، ومع أن المحرَّم هو الفعل، فقد نهاك عن الاقتراب منه؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يرحمَ عواطفك في هذه المسألة بالذات، وهي مسألة الغريزة الجنسية، لأنك إنْ حُمْتَ حول الحِمَى تُوشِك أنْ تُواقِعه[1]، فحين تبتعد عنه يكون خيراً لك.

وقد قَسَّم العلماء مظاهر الشعور إلى ثلاث مراحل:

مرحلة الإدراك مرحلة الوُجْدان مرحلة النُّزُوع

وضربْنا مثلاً لذلك فَقُلْنَا: أنت تسير فتجد بستاناً فيه وردة جميلة، ساعةَ ترى هذه الوردة الجميلة يُقال: إنك أدركت جمال هذه الوردة، فهذا إدراك، فلم يمنعْكَ أحدٌ أن تنظرَ إلى الوردة وترى جمالها.

فإذا ما أعجبتْكَ وراقتْكَ واستقرّ في نفسك حُبُّ الوردة، يُقال: هذا وجدان. فانتقلت من مرحلة الإدراك إلى مرحلة الوُجْدان.

فإذا مددْتَ يدكَ لتقطِفها فهذه مرحلة النُّزوع.

الشرع هنا لا يمنعك من أنْ ترى وردةً في بُسْتان، ولم يمنعك أن تُعجبَ بها، ولكنه يمنعك أنْ تمُدَّ يدكَ لِتقْطفها.

فالتشريع يتكلم عن مرحلة النُّزوع إلَّا في مسألة واحدة، هذه المسألة هي التي لا يمكن فيها فَصْل النزوع عن الوُجْدان، ولا الوُجْدان عن الإدراك، لأنها

(١) عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بَيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» أخرجه مسلم في صحيحه (١٥٩٩) كتاب المساقاة، وكذا البخاري في صحيحه (٥٢، ٢٠٥١).

مراحلُ مُتداخِلة في بعضها، حيث لا تَقْوى النفس البشرية على الفَصْل بينها.

فمثلاً، إذا رأى إنسانٌ فتاة جميلة فَعَشِقها وأُعجِب بها، فهذا إدراك ووجدانٌ، ثم أراد الاقتراب منها نقول له: هذه ليست لك.

فهذه المراحل لا يسهل فَصْلُها عن بعضها، لأن الإدراك وَلَّد وجداناً، والوُجْدان أحدث في النفس البشرية عملية غريزية عنيفة لا نستطيع أنْ نفصلَ النُّزوع عنها، فإمَّا أنْ تنزع وتذهب إليها، وإمَّا أنْ تعفَّ.

فإنْ نزعتَ وذهبت إليها أصبحتْ المسألة فوضى، وإنْ لم تفعل تتضايق وتتألم، وتظلّ عالقة بذهنِكَ ويُتعِبك التفكير والتعلُّق بها.

فربُّنا من رحمته قال لك: يا عبدي أنا أعلم بك، فافْصِل الإدراك والوُجْدان عن النُّزوع في المرأة بصفة خاصة، لأنك لا تستطيع إنْ أدركتَ جمالاً ألَّا تجدَ في نفسك عِشْقاً وحُباً، وأنت مُحرَّم عليك النُّزوع.

فإنْ أقبلْت هتكْتَ أعراض الناس، وعَمَمْتَ الفوضى، وإنْ عففْت أتعبتَ نفسك وظللْتَ في هَمٍّ وغَمٍّ ونكدٍ وألم نفسيّ، فمن الأفضل لك ألَّا ترى شيئاً من ذلك، وألَّا تجد حتى لا تنزع.

ولذلك حَرَّم اللَّه علينا أنْ ننظرَ إلى أعراض غيرنا، حتى يُريح الإنسانُ نفسَه من أول الأمر.

فقال تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ . . . ﴾ [النور: ٣٠].

فهناك غَضُّ النظر إلى محارم اللَّه، لأنك لو نظرتَ لأدركتَ، ولو أدركتَ لَوجدْتَ، ولو وجدْتَ لنزعتَ، فإنْ أخذتَ حظَّك من النزوع أفسدت الحياة واعتديْتَ على الأعراض، وإنْ كتمْتَ في نفسك تعبْتَ وتألمتَ وعانيتَ، وعِشْتَ حياةً تعيسة.

فالحقُّ سبحانه اختصر الطريق لنا، وأمرنا بغضِّ البصر من البداية حتى لا نقع في هذه المشكلة ونمنع حدوثها، وحتى نحمي أعراض الناس ونرحم نفوس الشباب من أنْ تكتمَ وتكبتَ وتمرض وتتألم.

بعض المتحايلين على أوامر اللَّه يدَّعُون أن النظرةَ لا تُحدِث شيئاً، وأن

كل واحد في حاله، ونحن نقول لهم: هذا كلام اللّه الذي خلقنا ويعلم دخائل نفوسنا وطبيعتنا، وهو الذي أمرنا بذلك.

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

لم يَقُل لا تزنوا... ولكن أمرنا بعدم الاقتراب منه، والاقتراب يكون بالنظر وبالمخالطة والمعاشرة والحديث بحجة أن هذا ابنُ خالتها، وهذا ابن عمتها، وهذا ابن عمها، وهذا تربَّى معها، وهذا زميلها.

وهذا كله فساد في فساد، لأنه طالما يحل له أنْ يتزوَّجها فلا عُذْرَ لاختلاطه بها، وعليه أنْ يبتعدَ ما دام ليس مُحرّماً عليها، وكفى المجتمعات مشاكل ومتاعب.

فامنعوا المسائل من أوَّل مراحلها.

لذلك أمر الحق سبحانه النساء بإخفاء الزينة، فقال تعالى:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا[١] وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ[٢] عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ[٣]...﴾ [النور: ٣١].

الزينة هي الأمر الزائد عن الخِلْقة الفِطْرية، ولذلك يقولون عن المرأة الجميلة بطَبْعها أنها ليست بحاجة إلى الزينة، فكانوا يُسَمُّونها غانية[٤]، أي: غَنيتْ بجمالها أنْ تتزيَّنَ.

والمرأة تُحِبّ دائماً أن تتزيَّنَ وتُبرِز جمالها ومفاتنها، خاصة إذا كانت

---

(١) أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال عبد اللّه بن مسعود: الزينة زينتان، فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب. (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٣).

(٢) الخمر: جمع خمار. وخمار المرأة: ما تغطي به رأسها، وقد أمر اللّه النساء بإسداله على صدورهن. والخمار: خمر الشيء ستره، وهو كل ما ستر وغطّى. (القاموس القويم ١/ ٢١٠).

(٣) الجيب: جيب القميص والدرع. وهو ما يفتح منه على الصدر. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، أي: يغطين أعلى صدورهن مع وجوههن. (القاموس القويم ١/ ١٣٨).

(٤) الغانية التي غنيت بحسنها وجمالها عن الحَلْي. (لسان العرب ـ مادة: غنى).

غير مُتديِّنة، وذلك حتى تجذب أنظار الرجال إليها، حتى أنك أحياناً ترى سيدة مُسِنَّة، ومع ذلك تضع الأصباغ والمساحيق على وجهها، وهذا شيءٌ غير لائق بها.

فالحقُّ سبحانه أمرَ المسلمات بغضِّ أبصارِهنّ، وعدم إبْداء زينتهِنَّ، ومع ذلك رَحِم اللَّه ضَعْف الأنوثة، فقال:

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ...﴾ [النور: ٣١].

مثل عينيها التي ترى بهما في الطريق، وقد يكون فيهما كُحْل، وكذلك يدها قد يكون فيها خاتم أو حُليّ، أو حِنّاء، فهذا مُبَاحٌ لها، لكن زينة الصدر أو زينة الأُذن لا بُدَّ أنْ تُداريها بالحجاب أو الخِمار، وكذلك الأَسْورة والخُلْخال.

ولذلك قال تعالى:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

ومن العجيب أنك تجد الكثير من الفتيات والسيدات في زماننا هذا لا تكتفي الواحدة منهُنّ بوضْع المساحيق على وجهها، بل تكشف شعرها وصَدْرها، وبعد ذلك تُعلِّق في عنقها قلادةً ذهبية فيها مصحف.

وهذا شيءٌ عجيبٌ ومفارقات غريبة تدلُّ على عدم الوَعْي أو الفهم.

ويَقُصُّ لنا الحق سبحانه في قرآنه مثالاً عملياً من قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، فيوسف بدأت متاعبه في القَصْر عندما بلغ مرحلة الفُتُوة، ففي طفولته نظرتْ إليه امرأة العزيز كطفل جميل، فلم يكُنْ يملك ملامح الرجولة التي تهيج أنوثتها.

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغيَّر، فقد بدأتْ تُدرك مفاتنه، وأخذ خيالها يسرحُ فيما هو أكثر من الإدراك، وهو التهاب الوَجْدان بالعاطفة المشبوبة[1]، ولو كانت محجوبة عنه لَمَا حدثتْ الغِوَاية بالإدراك والوُجْدان.

وهذا يعطينا عِلَّة غَضِّ البصر عن المثيرات الجنسية، فكانت نظرتها إلى

---

(١) شب النار والحرب: أوقدها. شَبّة النار: اشتعالها. (لسان العرب ـ مادة: شبب) والعاطفة المشبوبة: المشتعلة المتقدة.

يوسف عليه السلام وهو في فُتوته، بعد أنْ بلغ أَشُدّه نظرة مختلفة، يُوضّحها اللّه تعالى في قوله:

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ[1] . . . ﴾ [يوسف: ٢٣].

والمراودة مطالبةٌ برفْقٍ ولِينٍ بسَتْر ما تريده ممَّنْ تُريده، فإنْ كانَ الأمر مُسهّلاً فالمراودة تنتهي إلى شيءٍ ما، وإنْ تأبّى الطرَفُ الثاني بعد أنْ عرفَ المرادَ فلن تنتهي المراودة إلى الشيء الذي كنت تصْبو إليه.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن أَثَر النظَر في النسوة اللاتي أرسلت إليهن امرأة العزيز بعد أن شاعَ أمر حُبِّها وهُيَامها بفتاها:

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ[2] لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ • قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ . . . ﴾ [يوسف: ٣١، ٣٢].

فَهُنَّ حين آذيْنَ امرأة العزيز بتداول خبر مُراودتها له عن نفسه، تخيَّلْنَ له صورةً ما من الحُسْن، لكنهن حين رأيْنَه فاقَتْ حقيقته المرئية كُلَّ صورة تخيَّلْنها عنه، فحدثَ لهن انبهار.

وأوَّلُ مراحل الانبهار هي الذُّهول الذي يجعل الشيء الذي طرأ عليك يذهلك عَمَّا تكون بِصَددهِ، فإنْ كان في يَدِك شيء قد يقع منك، وقد قطعتْ كُلٌّ منهُنَّ يدها بالسِّكين التي أعطتها لها امرأةُ العزيز لتقطيعِ الفاكهة، أو الطعام المقدَّم لَهُنَّ.

(١) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها. أي: هلمّ لك. قيل: هي قبطية وقيل: حورانية (تفسيرابن كثير ٢/ ٤٧٣) وانظر أيضاً (الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١١٨) وقال في (٢/ ٢٥٤): «هيت: اسم فعل بمعنى: أسرع وبادر».

(٢) يقال: حاش للّه، تنزيهاً له. قال مجاهد وغير واحد: معاذ اللّه. (تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٧).

النفس والأجل

٣٤ ـ قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي للنفس:

«اخرُجِي. قالتْ: لا أخرجُ إلَّا كارِهةً. قالَ: اخرُجِي وَإِنْ كَرِهْتِ»[(١)].

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا . . . ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

فالله سبحانه هو الذي يُطلق الإذن، والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة، ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مَرَّةً هذه العملية للحق سبحانه، فيقولُ سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

ومرَّة أخرى يسند القرآن هذه العملية لملَك واحد هو مَلَكُ الموت، فيقول:

﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١].

ومرَّة يسندها الحق سبحانه إلى رُسُل من المعاونين لملَكِ الموت:

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً[(٢)] حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].

فقبضُ الروح والإماتة له آمِرٌ أعلى، وهو الحق سبحانه، ومن بعد ذلك

---

(١) أخرجه البزار (١/ ٣٧١ ـ كشف الأستار) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٢٥): «رجال ثقات».

(٢) الحفظة: جمع حافظ. أي: ملائكة رقباء. (القاموس القويم ١/ ١٦٣) والحفظة: الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بني آدم من الملائكة، وهم الحافظون. (لسان العرب ـ مادة: حفظ).

هناك مُوكَّلٌ عامٌّ هو «عزرائيل» مَلَك الموت، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة.

وهذه ثلاثة أساليب يَصِفُ بها الحق سبحانه عملية الوفاة وقَبْض روح العبد، وليس في هذا تناقضٌ أو تضاربٌ أو اختلاف، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التي صنعها اللَّه، فهو سبحانه الآمر الأعلى، يصدر الأمر إلى عزرائيل، وعزْرائيل يُطلِق الأمر لجنوده.

فهذه الأساليب الثلاثة كلها صحيحة، لأنها تتعلَّق بمدارج الأمر.

فالحق سبحانه وتعالى صادق في كُلِّ بلاغ عنه، لأن كُلَّ أمر يُحَدِّد الأجل ليس بمراد الموكّل بإنهاء الأجَل، إنما هو بإذن من الله تعالى الذي يُحدّد ذلك، وما دام كُلُّ أمرٍ قَدْ صدرَ منه فهو سبحانه الذي يتوفَّى الأنفس، وبعد ذلك فالمَلَكُ الذي يتوفَّى الأنْفسَ ـ عزرائيل ـ له أعوان.

فملَكُ الموت عندما يتلقَّى الأمر من اللَّه فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشرَ كُلُّ واحد مُهِمته[١].

إذن: فصَيْرورة الأمر بالموت نهائياً إلى اللَّه، وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من اللَّه، هذا هو الإذْن، والإذْنُ يقتضي مأذوناً، والمأذون هم ملائكةُ الموت الذين أذن لهم مَلَكُ الموت بذلك، ومَلَكُ الموت تلقَّى الإذن من اللَّه سبحانه وتعالى[٢].

---

(١) قال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول اللَّه وجلسنا حوله، فجعل يرفع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى الأرض ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، جاءه ملك فجلس عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من اللَّه ورضوانه فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقا، وإن كنتم ترون غير ذلك، وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم أكفان من أكفان الجنة، وحنوط من حنوطها، فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين» أورده القرطبي في التذكرة (ص١٢٩) وعزاه لأبي داود الطيالسي وأحمد بن حنبل.

(٢) نظر رسول اللَّه ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ: «ارفق بصاحبي فإنه مؤمن، فقال ملك الموت عليه السلام: يا محمد، طب نفساً وقر عيناً فإني =

إذن: فأمْرُ الموت مرهونٌ بمشيئة اللَّه وطلاقة قُدرته وتحديده لكل أَجَلٍ بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخَّر.

لقد أبهمَ اللَّه زمانه، وأبهمَ مكانه، وأبهمَ سببه،، وأبهمَ قَدْره. وهذا الإبهام هو أشدُّ أنواع البيان؛ لأنه ما دام قد أبهمه في كُلِّ هذه الأمور يجب أنْ نستعدّ للقائه في كُلِّ زمانٍ، وفي كُلِّ مكانٍ، وبأيِّ سبب.

وإياك أن تتعجَّب لأنه يحدث في أيِّ سِنٍّ، فإبهام الحق له هو أكبر بيان؛ لأنه سبحانه لو حَدَّده زماناً أو مكاناً أو سِنّاً أو سبباً، لكَانَ على الإنسان أنْ ينتظرَ الموت.

لكن الحق سبحانه شاء هذا الإبهامَ، وهو أَقْوى أنواع البيان، لِيلْفِتك ويحثَّك على أن تنتظره في أيِّ زمان، وفي أيِّ مكان، وبأيِّ سبب، وفي أيِّ سِنٍّ.

وبهذا يكون الموتُ واضحاً أمامنا جميعاً، ولذلك تخشى ارتكاب أيِّ ذنب حتى لا تُقبض رُوحك وأنت على الذنب، لأنك لا تحب أنْ تلقى اللَّه وأنت عَاصٍ.

إنك لا تضمن من عُمرك أنْ تعيشَ إلى آخر الوقت، ولذلك عندما نقول: إن الإبهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أنْ نُصدِّق ذلك، لأن البعض يقول: ولماذا لم يُبيِّن اللَّه لنا ذلك؟

ودائماً أقول: لقد أوضح اللَّه ما أبهم، فإن الإبهامَ هو أَقْوى بيان، أَلَمْ نَرَ إنساناً ذهب لطبيب ليعالجه في مسألة، فكان الطبيب سببَ موته؟ لقد رأينا ذلك، لقد أخذ هذا الإنسانُ بالأسباب، ولم يمنع ذلك أن قَدرَ اللَّه قد نفذَ فيه، فقد يُخطئ الطبيبُ مثلاً في إعطاءِ حُقنةٍ فتنتهي الحياة.

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول:

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . . . ﴾ [الأعراف: ٣٤].

= بكل مؤمن رفيق، واعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر، إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم لأنفسهم، واللَّه يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون اللَّه هو الآمر بقبضها». أورده القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص٧٦) ط. دار التراث القاهرة.

ولنعرفْ جميعاً أن كُلَّ أجلٍ ـ وإنْ طالَ ـ فهو معدود، وكُلّ معدود قليلٌ مهما بَدا كثيراً.

ويقول تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ...﴾ [آل عمران: ١٤٥].

هذا القَوْل قد يدفع إلى التساؤل: وهل الموت أَمْر اختياريّ؟

لا، ولكن قَوْل الحق سبحانه هنا له إيحاءٌ، لأنك عندما تقول: ما كان لفلان أنْ يفعلَ كذا، فهذا معناه أن لفلان أنْ يختارَ أن يفعل ذلك أو لا يفعله، وفي قدرة فلان أنْ يفعلَ أو لا يفعل، أما عن قدرة اللَّه فلا يمكن أنْ يقولَ أحدٌ ذلك.

إننا نفهمه على فَرْض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة، فما لها أن تموتَ إلا أنْ يأذنَ اللَّه، فإذا كانت النفس هي التي تدفع نفسها إلى موارد التهلُكة، مع ذلك لا تملك أنْ تموتَ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلُكة؟

إذن: فالموت إنْ أرادتْهُ النفس فلن يأتيَ إلا أنْ يكونَ اللَّه قد أَذِن بذلك، وإننا نجد في واقع الحياة صَوراً شتّى من هذه الصُّور.

نجد مَنْ يضيق ذرعاً بهذه الحياة؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسعُ للبلاء والكَدِّ في الدنيا فينتحر، إنه يريد أنْ يفرَّ مِمَّا لا يقدر على دفع أسبابه.

أما الذي يملك الطاقة الإيمانية الرَّحْبة، فأيُّ شقاء أو بلاء يُقابله يقول: إن لي ربّاً، ومَا أجراه عليّ رَبِّي فهو المربِّي الحكيم الذي يعرف مصلحتي أكثر مما أعلم، ولعلَّ هذا البلاء كفَّارة لي عن ذنب.

وهذا عكس مَنْ يفرُّ مِمَّا لا يقدر على دفع أسبابه، فيحاول أن يقتلَ نفسه[1]، وكُلٌّ مِنّا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك، لكن يتم

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (١٣٦٤، ٣٤٦٣) من حديث جندب بن عبد اللَّه البجلي أن رسول اللَّه ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحزَّ بها يده، فما رقأ الدم حتى مات»، قال اللَّه تعالى في حديثه القدسي: «بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة» انظر شرح هذا الحديث (١/ ١٢٣ ـ ١٣٤) (الحديث التاسع).

إنقاذهم ويُدركهم مَنْ ينفذ مشيئةَ اللَّه في إنقاذهم، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصاً سامة، أو إطفاء حريق مَنْ أشعل في نفسه النار.

فالمنتحر يريد لنفسه الموت، ولكن اللَّه إذا لم يأذن فلا يُبلغه اللَّه هذا، فقد تجد مُنْتحراً يريد أنْ يُطلِق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة، أو تجد مُنْتحراً آخر يريد أنْ يشنقَ نفسه بحبل مُعلّق في السقف فينقطع الحبل، لماذا؟

لأنه لا يقبض الحياةَ إلا مَنْ وهبَ الحياة.

قد يقول قائل: ولكن هناك المقتول الذي يقتله إنسانٌ آخر. وهنا يَرِدُ المَثلُ الشعبيّ: لو صبر القاتل على المقتول لماتَ بمفرده.

إن اللحظة التي تُفارق الروحُ مادة الجسد موقوتةٌ بأجل محدود، فمرّة تأتي اللحظةُ بدون سبب، فيموت الإنسانُ حَتْف أنفه، ويقول أصدقاؤه: لقد كان معنا منذ قليل، إنهم ينسوْنَ أنه مات لأنه يموت بكتاب مُؤجّل.

ولذلك نجد إنساناً يسعى إلى عافية الحياة، فيذهب لإجراء جراحة ما، وأثناء إجراء الجراحة يموت.

إن الكتابَ إذا انطوى فقد انتهى الأمر، حتى عندما يلتقي الإنسانُ بأسد، فيستوي الموت بالنَّاب، كالموتُ بظُفْر الأسد، فإنْ نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قُرْص دواء أو جَرْعة ماء.

والحق سبحانه يقول:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ . . . ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وما دامتْ كُلُّ نفس ذائقةَ الموت، فهذه قضية كونية عامة، فإنْ كان الموتى من الأخيار، فالموت تعجيلٌ بهم إلى لقاء اللَّه، وإن كانوا أشراراً فالموت يُريح الدنيا منهم، فالموْت خَيْرٌ في كِلَا الحالَيْن[1].

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٦٥١٢) عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أنه كان يُحدِّث أن رسول اللَّه ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فقال: مستريحٌ ومستراحٌ منه. قالوا: يا رسول اللَّه، ما المستريح والمستراح منه. قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة اللَّه عز وجل، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب».

ولكن كيف يُذاق الموت؟

وإذا كان الذَّوق هو إحساسُ الإنسان بألم الموت، فكيف يذوق الإنسان ألمَ الموت بعد أنْ يموتَ ويفقد الإحساس؟

قالوا: إن المقصودَ كلُّ نفسٍ ستذوق مُقدِّمات الموت، فيأتي على الإنسان وَقْتٌ ـ مهما كان صحيحاً ـ يدرك أنه لَا محالةَ ميِّت، فيذوق مُقدّمات الموت التي يعرف بها أنه سيموت.

وإذا استعرضنا كُلَّ ما في الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلَّا الموت، وفيما عدا ذلك فنحن نختلف، إذن: فلا بُدَّ أنْ نلتفتَ في حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى اللَّه، وعلينا أنْ نعُدّ العُدَّة لذلك، وكلُّنا سائرون إلى هذه النهاية.

ولكن استقبالَ الموت في لحظات السَّكَرات[١] يختلف بين المؤمن والكافر.

فعابد الدنيا عمل من أجلها فقط، ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة، فعندما يأتي له الموت يجد أنه لم يُقدِّم شيئاً لآخرته، وأن ما ينتظره هو العذاب، ولذلك يكره أنْ يتركَ نعيم الدنيا ليُلاقي عذابَ الآخرة.

أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتي له الموت فهو يستبشر، لأن الذي ينتظره خير يفوق كُلَّ الذي سيتركه، كمثَلِ إنسان يعيش في كوخ صغير، ثم ينتقل إلى قصر فاخر، ألَا يكون سعيداً؟

وكذلك المؤمنُ عندما يأتيه الموت يصبح كالذي ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر، أما صاحب الدنيا فمثَل الذي يُؤخذ من قصر إلى نار مُحرِقة، ولذلك فهو يكره ساعة الموت[٢].

---

(١) السكرات: جمع سكرة وهو شدته وغَشْيته التي تدل الإنسان على أنه ميت. (لسان العرب ـ مادة: سكر).

(٢) عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه، ومن كره لقاء اللَّه كره اللَّه لقاءه. فقلت: يا نبي اللَّه أكراهية الموت فكلنا نكره الموت. فقال: ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة اللَّه ورضوانه وجنته أحب لقاء اللَّه فأحب اللَّه لقاءه، وإن الكافر إذا بُشِّر بعذاب اللَّه وسخطه كره لقاء اللَّه، وكره اللَّه =

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية، ومن النعمة إلى المنعِم، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب، فنحن في الدنيا لا بُدَّ أنْ نأخذَ بالأسباب لنصنع ما نريد.

والمثال: أنك إنْ أردتَ أنْ تأكلَ فلا بُدَّ من أنْ تطهوَ الطعام أو أنْ يُعده لك غيرك، وإنْ أردت أنْ تلبس فلا بُدَّ لك ممنْ يصنع لك القماش ويَحيك الثوب.

ووراء كل نتيجة تُوجد سلسلة طويلة من الأسباب، فهناك الذي يزرع، والذي يحصد، والذي ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع، والذي يطحن الدقيق أو ينسج القماش.

أما في الآخرة فلا تُوجَد أسباب، بل بمجرد أنْ يخطر الشيء على بالك تجدْه أمامك، أليستْ هذه حياة نعيم؟

إذنْ: فالذي تنفرج أساريره ساعة الموت هو المؤمن[1]، والذي ينقبض وجهه ويتشنَّج عندما يأتيه ملَكُ الموت هو الكافر والعاصي، لأنه سينتقل من نعيم حتى ولو كان نسبياً إلى عذاب رهيب.

ويُقال: إن فلاناً أحسنَ اللَّه خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظةَ الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سَمْحة مُسْتريحة.

نقول: إن هذا صحيح، فهذه لحظة لا يكذبُ الإنسان فيها على نفسه، ونحن نعلم أن الإنسانَ حين يشتدُّ عليه المرض فهو يتشبَّث بالأمل في أنْ ينالَ الشفاء على يَدِ طبيب بارع، لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموتَ يتخلَّله، وأنه ميِّت لا محالة، مِصْداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۞ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۞ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٥].

= لقاءه» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٨٤) والترمذي في سننه (١٠٦٧). وقال: حسن صحيح.

(١) قال الحسن البصري: لا راحة للمؤمن إلا في لقاء اللَّه، ومن كانت راحته في لقاء اللَّه تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه (انظر: إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦٥).

حينئذٍ يستعرض أعماله، فإنْ رأى شريط الحياة حُلْواً منيراً، ابتسم وانفرجتْ أساريره، فيُقبض على هذا الوضع.

أما مَنِ امتلأت حياته بالسوء والمعاصي فوجهه يسودّ وتنقبض أساريره فيُقْبض على هذا الوضع.

وهذا مَا نُسمّيه الخاتمة، فلحظةُ الاحتضارِ فيها يقينٌ بالموت، ففي ساعة الاحتضار يخلو الذِّهْن من أيِّ شيء إلا صحيفة عمله، فهي التي تبقى في بُؤْرة شعوره.

وقد أبهم الحق سبحانه مكان موت أحدنا، فقال تعالى:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ (١) مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

فالحق سبحانه هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان، فالعقل البشري الذي يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت ـ مكاناً ـ عليه أن يعي جيداً أنه لا يستطيع ذلك.

فلطافة تغلغل الموت تخترق أيَّ مكان(٢) وزمان، ما دام الحق سبحانه قد قضى به، فلا أحدَ يستطيع أنْ يحتاطَ منه أبداً، فإذا كان اللَّه قد جعل للإنسان رُوحاً يهبه بها الحياة، فلماذا لا نتصوَّر أن للموت حقيقة.

فإذا مَا تسلَّل الموتُ للإنسان فإنه يسلُب الروح منه، وبذلك نستطيع أن نفهم قَوْل الحق سبحانه وتعالى في سورة الملْك:

﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢].

إذن: فالموتُ ليس عمليةً سلبيةً كما يتوهّم بعضُ الناس، بل عملية

---

(١) البروج: جمع برج، وهو الركن المرتفع أو الحصن العالي، والبيت يُبْنى فوق السور أو في أعلى الحصن. والبناء المشيد: الذي أحكم بناؤه وطلي ورفع عالياً. (القاموس القويم ١/ ٦١، ٢/ ٣٦٣).

(٢) أورد القرطبي في التذكرة (ص٧٥) من قول ابن عباس: «كان إبراهيم عليه السلام رجلاً غيوراً، وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم، فإذا هو برجل في جوف البيت فقال: من أدخلك داري؟ فقال: أدخلنيها ربها. قال إبراهيم: أنا ربها، قال: أدخلنيها من هو أملك بها منك، قال: فمن أنت من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت».

إيجابية وهو مخلوق بسِرٍّ دقيق للغاية يناسب دِقّة الصانع، ووصف الحق سبحانه أمرَ الموتِ والحياة في سورة الملْك، وقدَّم لنا الموتَ على الحياة، مع أننا في ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتي أولاً، ثم يأتي الموت.

لا، إن الموتَ يكون أولاً، ومِنْ بعده تكون الحياة، فالحياة تعطي للإنسان ذاتية ليستقبل بها الأسبابَ المخلوقة، فيحرثُ الأرض أو يتاجر في الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته، ويُمتِّع به السمع والبصر، فيظنُّ أن الحياة هي المخلوقة أولاً.

وسبحانه وتعالى يقول:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ . . .﴾ [النساء: ٧٨].

أي: أَيْنما تُوجدون يُدرككم الموت، وهذا دليل على أن الإنسان عندما تدبُّ فيه الروح ينطلق الموت مع الروح، إلى أنْ يُدركها في الزمن الذي قدَّره اللَّه.

وكلمة «يدرك» تُوضِّح لنا أن الموتَ يلاحق الروح حتى إذا أدركها سلبها، وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة: «**حتى إذا أدركها جَرَتْ، فلا أحدَ منكم إلا هو مُدْرَك**».

ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق: «**الموت سهم أُرسِل إليك، وإنما عمرك هو بقدْر سفره إليك**».

وهكذا نعرف أن قوله الحق: (يدرككم) يدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان، ويجري وراء روحه حتى يُدركها.

والحق سبحانه يوضح أنه أَتَى بالموت ليؤدي أمرين:

الأمر الأول: أن مَنْ يؤمن عليه أنْ يستحضرَ الموت لأن جزاءه لا يكون له منفذ إلا أنْ يموتَ ويَلْقى ربه، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت، فساعةَ يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء اللَّه، لأنه ذاهب إلى الجزاء.

والأمر الثاني: أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعدّ له ويخاف أنْ يُلاقِي ربه.

إذن: فكلمة «الموت» تعطي الرغَب والرهَب، فصاحب الإيمان ساعةَ يسمع كلمة الموت يقول لنفسه: إن متاعبَ الدنيا لن تدوم، أريد أنْ ألقى ربي.

ولذلك يجب أنْ يستحضرَ المؤمنون باللَّه تلك القضية، وحين يستحضرون هذه القضية يهونُ عليهم كُلّ مُصَاب في عزيز، فالإنسان ما دام مؤمناً فهو يعرف أن العزيز الذي راح منه إما مؤمن وإما غير مؤمن.

فإنْ كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذي افتقده؛ لأن اللَّه عَجَّل به ليرى خَيْره، فإنْ حزنتَ لفقد قريب مؤمن فأنت تحزنُ على نفسك، وإنْ كان الذي ذهب إلى ربه غَيْر مؤمن، فالمؤمن يرتاح من شرِّه[1].

إذن: الموت راحة، والذي عمل صالحاً يستشرف إليه، وهذا رغب، أما الكافر فهو خائف، وهذا رَهب.

ولذلك فمن الحُمْق أنْ يحزنَ الإنسان على ميِّت، وعليه أنْ يلتفتَ إلى قول الحق سبحانه:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

فقدَرُ اللَّه لا يمكن أنْ يمنعه مانع مهما كان، ولا يمكن أنْ يحمي الإنسانُ نفسَه مما قَدَّره اللَّه له.

فقدَرُ اللَّه لا يمكن أنْ يمنعه مانع مهما كان، ولا يمكن أنْ يحمي الإنسانُ نفسَه مما قَدَّره اللَّه له.

ولذلك يردُّ الحق سبحانه على الذين قالوا:

﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا . . .﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فكأنهم أرادوا أنْ يُعلِّلوا القتل أو الموت بأسباب، ومَنِ الذي قال: إن القتلَ أو الموتَ يتعلّق بأسباب؟

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ . . .﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال: «أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم». أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٤)، وكذا مسلم في صحيحه (٩٤٤) كتاب الجنائز.

إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة، وهي مجهولة السبب، ومجهولة الزمان، ومجهولة المكان، ومجهولة العمر.

إذن: فما دامت المسألة مجهولة، فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة؟ وهل لم تروا إنساناً مات وليس في موقعة؟ ألم تروا إنساناً قد قُتِل وليس في موقعة؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا في مواقع قتال وحرب لكانَ لكم أنْ تقولوا هذا، وإنما القتل والموت قضية عامة لها واقع في حياتكم.

هذا الواقع لم يرتبط بأرض، ولم يرتبط بزمان، ولم يرتبط بسِنٍّ، ولم يرتبط بسبب، وإنما الموت يأتي لأنك تموت، انتهت المسألة.

إذن: فَهُمْ عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة، فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية، ولذلك يأتي الردُّ من الحق سبحانه بأمر واضح للرسول ﷺ:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ...﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فكأنك أيُّها الميّت قد تكون أحرصَ على لقاء الموت من حِرْص الموت عليك، بدليل أننا قُلْنا: إن الإنسان يكون مريضاً ويُلِحّ على أن تُجْرى له عملية جراحية فيعتذر الطبيب قائلاً: عندي عدد كبير من الجراحات فانتظر شهراً، فيأتي له المريض بوساطة لكي يقبلَ الطبيبُ إجراءَ العملية الجراحية ويُلح عليه، ويُغْلي أجْر الطبيب وقد يموت المريض.

إذن: فهو يُلحّ على الموت ويحرص عليه.

ولا بُدَّ أنْ يُقابل المؤمنُ مَوْتَ عزيز عليه بالصبر والتسليم لِقدَرِ اللَّه، وهؤلاء وصفهم الحق سبحانه بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم، وهي مأخوذة من إصابة الهدف، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قَدْر إيلامها يكون الثوابُ عليها.

وأيُّ أمر يصيب الإنسان، إمَّا أنْ يكونَ له دَخْل فيه، وعند ذلك لا يصح أن يجزع لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه، وإمّا أنْ تكونَ مصيبة لا دَخْلَ

له بها، وحدثتْ له من غيره مثلاً، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها: أَعَدْلاً أم ظُلْماً؟ إنْ كانت عَدْلاً فهي قد جبرت الذنبَ، وإنْ كانت ظُلْماً فسوف يقتصُّ اللَّه له مِمَّنْ ظلمه، وعلى هذا فالمؤمن في كِلْتَا الحالتين رابح.

إذن: فالمؤمن يستقبل كُلَّ مصيبة متوقعاً أن يأتي له منها خير، وعلى كل مؤمن أنْ يُقيّم نفسه تقييماً حقيقياً: «**هل لي على اللَّه حق؟ أنا مملوك للَّه وليس لي حَقٌّ عنده، فما يُجريه عليّ فهو يُجريه في مُلْكه هو**».

ومنْ لا يعجبه ذلك فليتأبَّ على أيِّ مصيبة، ويقول لها: لا تصيبيني.

ولا تستطيع دَرْء أيِّ مصيبة، وما دُمْنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث، فَلْنقبلْها ـ كمؤمنين ـ لأن الحقَّ سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أنْ يُعزنا ويُكرمنا.

إنه يدعونا أن نقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى اللَّه ونقبل ما حدث لنا، فنحن مملوكون للَّه، ونحن راجعون إليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

فكُلُّنا نعيش برحمات اللَّه، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة اللَّه، ويأخذ أسباب حياته برحمة اللَّه، والنعم والخيرات التي يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة اللَّه، والمؤمن يأخذ نِعَم الدنيا برحمة اللَّه، ويزيد اللَّه له بالبركة والاطمئنان.

والاطمئنان نعمة كبرى، فَمَنْ يعِشْ في هذه الحياة وهو مُطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة، فهذا لَوْنٌ عظيم من الاطمئنان.

فالصلاةُ من اللَّه عطاءُ الرحمة والبركة.

والصلاةُ من الملائكة استغفارٌ.

والصلاة من المؤمنين دُعاءٌ.